الفينيقيُّون واوديسَّاة هوميروس (١

نظر للاب لويس جلابرت اليسوعي

قد خصَّ المشرق في العام الماضي عدَّة صحائف لدرس الياذة هوميروس وترجمتها الحديثة . الَّا انَّ لهذا الشاعر المفلق منظومةً أخرى ليست اقلَّ شأنًا من الالياذة وهي الاوديسَّاة (Odyssée) او اسفار الملك اوليس واخباره . نظمها هوميروس بالشعر اليوناني نظمًا فائقًا فجعل العملين على شرجٍ واحد كأنَّهما الفرقدان للمتأمل . على انَّ العلماء كانوا يفضلون درس الالياذة لما فيها من المعاني الحماسيَّة وارتباط الاجزاء وتعريف احوال قدماء اليونان . وفي هذه السنين الاخيرة قد صدر كتابٌ عجيب في هذا الصدد لاحد ادباء فرنسة المعدودين وهو العلَّامة فكتور بيرار (V. Bérard) فاتحفنا بنسخة منهُ . وقد رأينا ان نوسع المجال لوصف هذه الطرفة المستظرفة في نبذة صغيرة نفردها . لعلمنا بانَّ القرَّاء يتلقَّون بالشكر والثناء كلَّ ما يفوط بتواريخ بلاد فينيقية القديمة . وجناب المؤلف لم يكتب ما كتب الَّا لتعريف احوال الفينيقيين واطراء علومهم ومدح اعمالهم الشريفة التي انتفع بها هوميروس فاستحقَّ بذلك مجدًا مؤثلًا

وان سأل القارئ وكيف استدلَّ السيو بيرار على ذلك ؟ اجبنا انهُ بنى درسهُ هذا الجديد على عبارتين وجدهما في الجغرافيِّ الشهير اسطرابون الذي ازهر قبل المسيح ببضع من السنين . قال في احد كتبهِ : « اذا وجدت هوميروس يحكم الوصف للبحرين معًا اي البحر الداخليَّ والخارجيَّ فذلك لانهُ اخذ علومهُ من الفينيقيين » وقال في محلٍّ آخر : « ان الفينيقيين الذين فتحوا بلاد ليبية وايبا انَّما كانوا اجداده ومعلِّميه » . فتشب هذا القول في عقل المؤلف واسرع الى درس منظومة الاوديسَّاة مستفيدًا بنبراس قول اسطرابون فكانت نتيجة درسهِ هذين الكتابين الضخمين وهما اعظم صرح أُقيم لمجد هوميروس والفينيقيين معًا

*

وزبدة هذا التأليف في هاتين القضيَّتين : الاولى ان صاحب منظومة الاوديسَّاة

1) Victor Bérard: Les Phéniciens et l'Odyssée, Paris. Colin, 2 vols., 4°, pp. 590 et 630, avec de nombreuses cartes et illustrations dans le texte

كان عائشاً في وسط التمدُّن الفينيقي وان معارفهُ الجغرافيَّة مستعارة من قوم أَلِفوا البحار وخاضوا كل مجاهلهِ . والقضيَّة الثانية نتيجة الاولى وهي صحَّة هذه الاوصاف الجغرافيَّة وانطباقها مع مواقعها الاصليَّة . وذلك ممَّا يشهد على انَّ الكاتب ان لم يكن بحَّارًا كان على الاقلّ تلميذًا لقوم اصابوا نقابة البحار لم يفتهم شيءٌ من البلاد التي زاروها في سياحاتهم البحريَّة

وبيانًا للقضيَّة الاولى قد عُني المسيو بيرار باستقراء كل سواحل البحر المتوسّط ففحصها واحدًا بعد آخر لينظر فيها كل مقام يحسن بالتجارة البحريَّة دون رعية الواشي فكان اذا رأى موقعًا ضامنًا للامور التجاريَّة جامعًا لشروط سكنى قوم بحَّارين بحث عن المدن التي اقيمت في تلك الامكنة ثم فحص اسماءها القديمة واحوال اهلها وما طرأ عليها من التقلُّبات فكانت نتيجة ابحاثهِ انَّ هذه الامكنة جامعة لتمدُّنين مختلفين ركب الواحد فوق الآخر فالحديث هو التمدُّن اليوناني والقديم هو التمدُّن الفينيقي . وهذا يعمُّ كل اطراف البحر المتوسط دون استثناء . وعليهِ فلا عجب اذا احسن هوميروس وصف البلدان اذ انَّ قدماء اليونان كانوا يتقفَّون آثار الفينيقيين خطوة خطوة

وزاد المؤلف على ذلك بقولهِ : وليس فقط جرت حوادث الاوديسَّاة في وسط تمدُّن فينيقي ولكن يُستشفّ من وراء شعر هوميروس وصف احوال الفينيقيين فترى فيهِ من آثار لغتهم وآدابهم وعاداتهم ما لا يوافق مطلقًا ما نعلمهُ عن التمدُّن اليوناني . فان فحصنا مثلًا ما ورد في نظم الاوديسَّاة من ادوات التجارة والمعادن والاسلحة والآنية والاثاث والملابس وجدنا تحت قشرة اللفظ اليوناني لبَّ الالفاظ الفينيقيَّة ومعانيها . وقد اثبت كل ذلك بامثلةٍ متعدّدة بحيث يمكن القارئ ان يحكم بها على وفرة العلاقات الدائرة بين اليونان والفينيقيين وعلى طريقة معيشتهم واسفارهم

وبعد اثبات هذه القضيَّة الاولى ينتقل المسيو بيرار الى بيان القضيَّة الثانية اعني صحَّة الامكنة التي ورد ذكرها في رحلة عوليس فتحقَّق وجود بلاد عديدة كانت تُحسب محض اختلاق كجزيرة الفياقيين وارض أكلة السدر وغار كالبسو ومقام الجبَّار پوليفيام وجزيرة ملك الرياح ومملكة قرقاي (Circé) وهاويتي كاربدة وسيلا وجزيرة الشمس واناكة موطن عوليس . وقد اتبع كل هذه الامكنة وبيده شعر هوميروس ليتبيَّن صدق اوصافهِ في منظومة الاوديسَّاة . فرآه لم يخلّ في شيءٍ يُذكر . حتى انهُ لا يخاو امر مؤلف

هذه المنظومة من احد قبيضين اما ان يكون هو مجريًا وهذا لم يقلهُ احد عن هوميروس واما ان يكون اخذ اوصافهُ عن ارباب البحر وهو الاصحّ . والمسيو بيرار يرجح انّ هوميروس اطّلع على كتاب لاحد الفينيقيين كانت فيهِ اوصاف سواحل البحر المتوسط فنقلها الى شعره وبنى عليها اسفار اوليس . وهذا ما يفسّر قول اسطرابون عن اصل معارف هوميروس المشتقّة من الفينيقيين

ومما زاده هوميروس على هذه الافادات والاوصاف انهُ كان بمخيّلتهِ الشعريّة يعظّمها وينسب لها الحياة فاذا اراد مثلًا بركان « الاتنا » جعلهُ جبّارًا ذا عينٍ واحدة يترصّد للمجتازين الى غير ذلك من التخيّلات التي كان يتناقلها الشعوب الاقدمون فيزيدون في غرابتها بتداولها على الالسنة

ولعلّ هوميروس لم ينقلها كلها الى منظومتهِ الّا بعد شيوعها بين قبائل اليونان فجمعها ونظمها في سلك واحد فجاءت كعقد ثمين تتواصل اقسامهُ وتتّسق درره . الّا انّ الذي يخصّ بالنظر كل مركّبات هذه القلادة وجرّدها عن زخارفها وجد من ورائها المعلومات الفينيقيّة التي زانها هوميروس بتصوّراتهِ العجيبة واحاديثهِ الغريّة

هذه خلاصة الكتاب الذي تولّينا وصفهُ في هذه اللمعة . الّا انّ هذا النظر الاجمالي لا يكفي لتعريف ما يتضمّنهُ الكتاب من الحاسن في تفاصيلهِ واوصافهِ وسياق براهينهِ وملحوظاتهِ الدقيقة ولذلك نحضّ محبي الآداب الشرقيّة على مطالعتهِ والاقتباس من انوارهِ

على اننا مع ما وجدناه في هذا الكتاب من الصفات الفريدة والفوائد العديدة لا نكتم القرّاء بانا وان كنّا نسلّم بصحّة القضيّتين اللتين تولّى المسيو بيرار بيانهما الّا اننا لا نوافقهُ في كل مزاعمهِ . نعم لا ننكر فضل قدماء الفينيقيين الّا ان بعض الادلّة التي استند اليها قسمًا من احتجاجهِ لا نراه مقنعًا وربّما استنتج من مقدّمات ضعيفة نتائج خطيرة لا يرضى بها ذوو العقول النيّرة او تبعث في النفوس ريبًا وشكًّا ولا سيّما قول الكاتب في كيفيّة وضع الاوديسّاة يفتح مجالًا واسعًا للمناقشات ولعلّ البعض يعكسون على المسيو بيرار شيئًا من هذه الحجج فيما قال عن بعض الاختراعات وغيرها فيزعمون ان الفينيقيين اخذوها من اليونان لا اليونان من الفينيقيين . فهذا ما اشرنا اليهِ حبًّا بالانصاف لئلا يظنّ احد باننا نسلّم بكل مزاعم المسيو بيرار ونترك الحكم الفصل للعلماء من بعدنا